المشرق

قيامة المسيح في العاديات النصرانيّة *

نظر للاب لويس شيخو اليسوعيّ

ليس عيد في الكنيسة المسيحيّة اعظم ولا موسم اشرف من عيد قيامة الرب . فانّهُ قطب الدين النصرانيّ وركن العقائد البيعيّة فان تقوّض اسّهُ سقط ذلك الصرح الشاهق الذي ابتناهُ ابن الله عند مجيئهِ الى العالم كما قال بولس الرسول في رسالتهِ الاولى الى اهل قورنتس (١٥ : ١٤) فان « كان المسيح لم يقم فكرازتنا اذن باطلة وايمانكم ايضاً باطل » . ومن ثمّ صدق القديس غريغوريوس النزيزي حيث قال وهو لسان النصرانيّة جمعاء : « انّ احد القيامة ادينا نحن المسيحيين يفوق باحتفالهِ وبهجتهِ ليس فقط كلّ الافراح الارضيّة والمواسم البشريّة بل يغلب ايضاً على بقيّة الاعياد التي غايتها ذكر حياة السيد المسيح واعمالهِ سبحانهُ وتعالى كما تغلب الشمس بنورها ضوء بقيّة الكواكب » ولا غرو لانّ هذا السرّ مسك ختام سيرة المخلص

ولمّا كان المشرق قد خصّ سابقاً بعض مقالاتهِ اللاهوتيّة في اثبات هذا السرّ (٦ : ٣٣٧ ; ٤١٣ و ٨ : ٤١٣) رأينا في العام الجاري ان نورد شيئاً من الآثار القديمة التي خلّفها نصارى القرون الاولى شهادةً صادقةً تنطق باسان حالها عن معتقدهم المستقيم .

*) قد راجعنا لكتابة هذه المقالات الكتب الآتية

Northcote et Brownlow: *Rome souterraine* (trad. P. Allard). = Garrucci: *Storia dell'Arte Cristiana*. = Martigny: *Dictionnaire d'Antiquités chrétiennes*. = Kraus: *Encyclopaedie d. christ. Alterthum*. = De Vogüé: *Syrie centrale. Architecture civile et religieuse.*

وكذلك نشكر حضرة الاب لويس جلابرت الذي افادنا عدّة افادات فساعدنا في جمع هذه الآثار القديمة

فمن هذه العاديات ما نُقش في الديناميس الرومانيَّة ومنها ما نُقر في الصخر الاصمّ او رُسم على المعادن او حُفر على النواويس المدفنيَّة او صيغ في الحليّ والمصاغات الثمينة في بلاد شتَّى. هذا فضلًا عن الكتابات المصرّحة بذكر القيامة لا سيَّما العبارة التي وُجدت في آثار متعدّدة من بلاد الشرق ولا يزال اهل بلادنا يردّدونها في صباح القيامة مشافهةً عند ما يحيّي بعضهم بعضاً بالسلام : « قام المسيح. حقًّا قام »

*

انَّ العاديَّات التي تمثّل قيامة فادينا المجيد من قبره بقوَّة لاهوته على صنفين: فمنها ما هو صريح ظاهر ومنها ما هو خفيّ رمزيّ وكلاهما دليل على ايمان النصارى الاوَّلين

وانَّما الصريح الظاهر من هذه الآثار اقلّ من المآثر والرسوم الرمزيَّة والسبب واضحٌ وهو انَّ النصارى الاوَّلين لم يمكنهم ان يمارسوا دينهم جهارًا لما اصلاه عليهم الوثنيُّون من الاضطهادات وما لحقهم من قياصرة الرومان من المحن والشدائد فقُضي عليهم ان يتستَّروا ويعيشوا في العزلة او يستوطنوا الاسراب والدياميس ليقيموا فيها مشاعر الدين

وقد وجد مع هذا في بطن الارض بعض الآثار التي لا تُبقي شبهةً في معتقد النصارى القدماء وتعلن ايمانهم لكل ذي عين. فمن ذلك عدَّة نواويس وجدت في فرنسة القديمة وايطالية عليها نقوش وتصاوير شتَّى منقورة غالبًا في الحجر وهي تمثّل بعض اعمال الربّ عزَّ وجلّ وفي وسطها شعار القيامة.

واجل هذه البقايا الجليلة وادلُّها على حقيقة الامر ناووس قديم من القرن الرابع يُرى اليوم في المتحف الواتيكاني على احد جوانبهِ احداث من آلام المخلِّص كحكم بيلاطوس عليهِ بالموت وتكليلهِ بالشوك وحملهِ الصليب وحداد الطبيعة عليهِ عند موتهِ. وفي الوسط الحرفان الاوّلان من اسم يسوع المسيح باليونانيَّة على دائرتهما اكليل يحيط بهما الطيور وهما فوق رسم الصليب المقدَّس. وتحت جناحي الصليب جنديَّان رومانيَّان اشارةً الى حرس القبر احدهما منكبٌّ على ترسهِ كأنَّهُ نائمٌ اما الآخر فقائمٌ ينظر الى الصليب باهتًا متحيِّرًا كأنهُ يطلب المصلوب الذي أفلت من الموت (وقد رسمنا هنا قسمًا من هذه الصورة ص ٣٣٨)

واصرح من هذا الاثر رسمٌ وُجد في ميلانو على ناووس يُعرَف بناووس القديس كلسوس ترى فيهِ قبرًا على شكل البرج يُدخَل اليهِ بباب مقوَّس في اعلاه ومن عن يمين البرج امرأتان في هيئة الحزن والاسف وهما المريمان بلاشكّ. فالواحدة منحنية تنظر الى باطن القبر مندهشة اذ تراهُ فارغًا ليست فيهِ جثَّة المسيح والثانية منتصبة تشخص الى اعلى البرج حيث يظهر لها ملاك يبشِّرها بقيامة الدفين. ومن عن شمال القبر ترى المخلِّص على هيئة من الجلال والمجد كاشفًا ثوبهُ عن جنبهِ الايسر وبازاء الربّ شخصان احدهما وهو توما الرسول يمدُّ يدهُ الى جنب المخلِّص المفتوح بالحربة مقرًّا بقيامتهِ كما روى ذلك القديس يوحنَّا في انجيلهِ (٢٠: ٢٨)

*

اما الرموز والاشارات الخفيَّة الى قيامة السيِّد المسيح فاوفر عددًا بين العاديات النصرانيَّة التي تزين المتاحف الكبرى وخصوصًا المتحف الواتيكاني الذي لا يوازيهِ في

غناه متحف آخر لوفرة كنوزه الاثرية الدينية. فمن الرموز التي اتخذها قدماء النصارى للدلالة على ايمانهم بهذه العقيدة ما استعاروه من اخبار بني اسرائيل لعلمهم بأن ما جرى لشعب الله انما عرض لهم رمزاً وتلميحاً الى السيد المسيح وكنيسته كما قال بولس الرسول في رسالته الاولى الى اهل قورنتس (١٠: ١١)

واقدم هذه رموز العهد العتيق يوسف الحسن ابن يعقوب فانّ النصارى الاوّلين يمثلون تارةً نجاتهُ من الجبّ حيث القاهُ اخوتهُ وتارةً خروجهُ من سجن فوطيفار ليرقى الى اعلى المراتب وانما كانت غايتهم بذلك الاشارة الى السيد المسيح فاتحاً سجن قبره ليظفر بمجد ابيه السماوي

وكذلك رسموا في عادياتهم صورة شمشون اذ دخل غزّة وفيها اعداؤهُ من بني فلسطين فاقفلوا ابواب المدينة رجاء منهم ان يلقوا القبض عليه فيوقعوا به فقام نصف الليل واخذ مصراعي باب المدينة بعضادتيه وقلع الباب ومغلاقهُ وحملهُ على منكبيه كما جاء في سفر القضاة (١٦: ١—٤). فقد ارادوا بهذا المثال التنويه بالسيد المسيح الذي حطّم ابواب الجحيم وفكّ اغلال الموت. قال القديس اوغسطينوس في ميمره الحادي والعشرين على انجيل متى:

« انّ شمشون لم يخرج فقط من مضيقه نصف الليل بل حمل ايضاً باب محبسه. وكذلك فادينا لمّا قام قبل الفجر ليس فقط خرج حرّاً من الجحيم لكنهُ حطّم ايضاً ابواب الهاوية ثمّ حمل الابواب وصعد الى قمّة الجبل كشمشون لانهُ بقيامته ازال ابواب الجحيم وصعد نافذاً الى ملكوت السماوات ». لكنّ هذا الرمز قليل في العاديات النصرانيّة وكأنهم خافوا من ان يصير التباس في معنى هذه الصورة فتُخلَط بصور أُخرى مثلاً بصورة المخلّع الذي قال لهُ المسيح بعد شفائه: « احمل فراشك وامشِ »

وأبين من الرمزين السابقين واجلى معنًى واكثر ورودًا بين الرسوم النصرانيّة القديمة قصّة يونان النبيّ الذي أُلقي في البحر وابتلعهُ الحوت فبقي في بطنه ثلاثة أيام دون ان يُصاب باذاهُ حتى قاءهُ حيّاً سالماً. فكذلك بقي المسيح في قبره ثلاثة أيام ثمّ عاد الى الحياة. وكان لذكره السجود سبق مصرّحاً بأنّ آية يونان هي آيتهُ الخاصّة حيث قال لمن طلب منهُ معجزة (متى ١٢: ٣٨—٤٢): انّ الجيل الشرير الفاسق يطلب آيةً فلا يُعطى آيةً الّا آية يونان النبيّ لانهُ مثلما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام

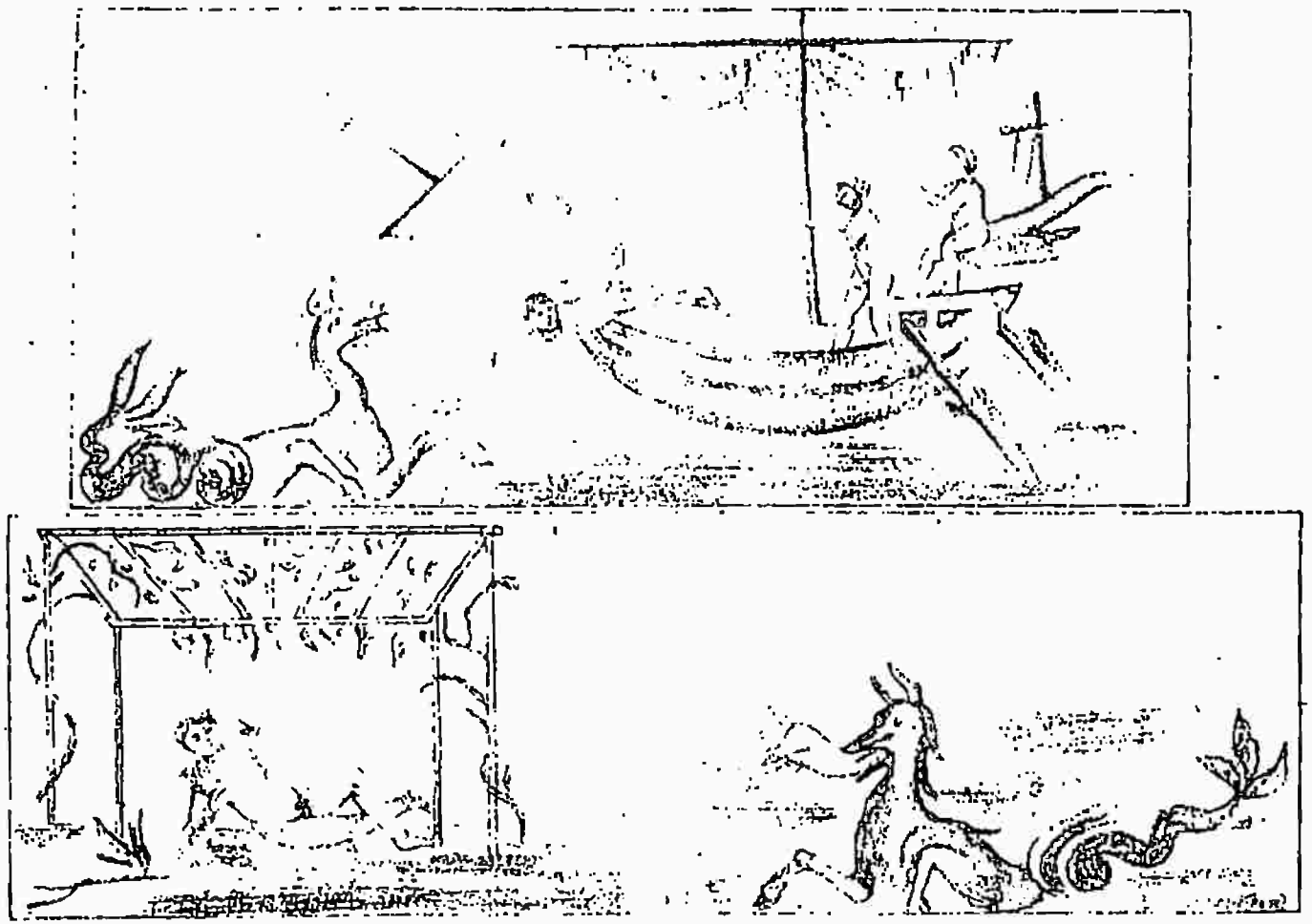

صورة يونان النبي في الدياميس رمزاً الى موت المسيح وقيامته

وثلث ليالٍ كذلك يكون ابن البشر في قلب الارض ثلاثة ايام وثلاث ليال ». وقد اكثر المصوّرون النصارى من رسم هذا الحادث الكبير مُعربين بهِ عن انَّ يونان الحقيقيّ هو هو المسيح الذي قام حيًّا ظافرًا بعد انحجابهِ في القبر مدَّةً كما حُجب يونان في بطن الحوت. وربَّما اضافوا الى هذه الصورة صورةً أُخرى تمثل يونان مستظلًا تحت خروعةٍ يريدون بهِ المسيح راقدًا في قبرهِ (اطلب الصفحة ٣٤١). وصورة يونان من اقدم الآثار النصرانيَّة تُرى في نقوش الديماميس الرومانيَّة الراقية الى القرن الثاني والثالث للمسيح وفي آثار ايطالية وفرنسة على انواط واقداح مذهَّبة ومصابيح وغير ذلك

*

وهذه الرموز المنقولة من العهد القديم كانت بيّنةً ساطعة الوضوح لم يمكن النصارى ان يرسموها في امكنة عديدة خوفًا من أن يدري بهم اعداؤهم فيلحقوا بهم ضررًا. ومن ثمَّ قد اتخذوا رسومًا أُخرى كانت شائعة بين الرومان فحوَّلوا معانيها الوثنيَّة الى معانٍ نصرانيَّة محضة

واوَّل هذه الرسوم طائر وهميّ يدعوهُ بعض العرب بالسمندل (المشرق ٦: ١١). قال في التاج: « السَّمندل طائر بالهند لا يحترق بالنار. وعن كراع قال: انهُ اذا هرم وانقطع نسلهُ ألقى نفسهُ في الجمر فيعود الى شبابهِ ». فهذا الطائر الخيالي كان شائعًا ذكرهُ عند الرومان واليونان وهم يدعونهُ فينيكس (Phenix) وكانوا اذا ارادوا الاشارة الى العيشة الخالدة رسموا صورتهُ. فلمَّا جاءت النصرانيَّة عمدت الى صورة هذا الطائر ومثَّلت صورتهُ في المدافن وغيرها والمقصود بفعلهم التلميح الى قيامة الاجساد التي اصبح السيد المسيح مثالًا لها وعربونًا. وفي ترجمة حياة القديسة سيسيلية الرومانيَّة أنها لمَّا أودعت جثَّة الشهيد القديس مكسيموس في ناووس من الرخام امرت النقَّاش بان

ينقش على جوانبه صورة السمندل دلالةً على انبعاث الاموات . وربَّما كان المصوّرون والنقّاشون المسيحيُّون يجعلون الطائر السمندل تحت النخلة وذلك لاسباب اما لأنهم كانوا يجدون في النخلة رمزاً آخر الى الخلود واما لانطباق اسم السمندل واسم النخلة على لفظ واحد في اليونانيَّة ويقال لكليهما فينيكس (Φοῖνιξ) فجعلوا الصورتين كلغز واحجيَّة لناظرهما يستدلُّ بهما على مسمَّيين مختلفين مدلولهما واحد وهو القيامة والبعث . ومثال ذلك نقش بديع عربق في القدم يُرى في رومية في معبد القديسة سعدى الشهيدة وابنائها السبعة فانَّ المصوّر رسم صورة نخلتين تحتهما طائران من السمندل المذكور

ومما يؤيد هذا المعنى الثاني آية وردت في سفر أيوب (٢٩ : ١٨) تُقرأ اليوم في نسختنا العربيَّة هكذا: « وكنت اقول اني سأموت في كنّي وكالرَّمل ازداد أيَّاماً » فانَّ لفظة الرمل في الاصل العبراني وهي « حول » (חול) ثلاثة معانٍ اي الرمل وشجرة النخل والطائر السمندل ومن ثمَّ اختلف المفسّرون في الشرح ومنهم من يفضّل معنى الطائر او معنى النخل على معنى الرمل فان الترجمة اللاتينيَّة استخارت معنى النخلة والرُّبانيُّون يرجّحون المعنى الاوَّل اي الطائر وقيل انَّ النصارى لمَّا نقشوا صورة النخل وصورة السمندل ألمعوا الى هذا النصّ وزادهم رغبةً في الاشارة اليه انَّ ايوب كان يُعتبر مثالاً للمسيح في قيامته كيوسف الحسن وشمشون ويونان

ومن الرموز الخفيَّة التي استعارها النصارى عن الوثنيين ليشيروا بها الى قيامة الاجساد التي ضمنها المسيح بقيامته وهو باكورة الراقدين : الطاووس . وما حدا بهم الى ذلك رأي قدماء الطبيعيين في هذا الطائر فانهم على ما روى القديس اوغسطينوس كانوا يزعمون ان لحم الطاووس لا يفسد بالموت . وكذلك لحظوا انَّ هذا الطائر ذا الريش البهيّ يفقد كلَّ سنة في فصل الخريف ريشهُ فيجدّد في أوان الربيع الوانهُ الزاهية وبذلك يشارك الطبيعة في رونقها المتجدّد وانتعاشها بعد موتها . فعمد المسيحيُّون الى تصوير الطاووس على مدافنهم يرمزون به الى قيامة المسيح والى بعث اجسادهم معهُ في يوم الدين . ولذلك ترى الطاووس تارةً وحدهُ وتارةً مع التصاوير السابق ذكرها كصورة يونان النبيّ وقد وردت صورتهُ مع صورة قيامة لعازر من الموت الى غير ذلك مما لا يبقي شكًّا في معناهُ . وكانوا يصوّرونهُ اما واقفاً رافعاً رأسهُ واما منتصباً

فوق كرةٍ يريدون بها الارض التي يطأها بقدميه مزريًا بالسفليات وهو ناشرٌ ريشهُ المنقَّش بالالوان الجميلة كأنهُ يمثل النفس بعد خروجها من حبس جسدها الفاني

وصورة الطاووس من الرموز التي استحبَّها نصارى بلاد الشام قديمًا فكرَّروا نقشها على مدالهم وغيرها من الابنية . فمن ذلك ما عاينهُ حضرة الاب لامنس في قرية تدعى الغور يسكنها المتاولة (١ فوجد عتبة مدفن رُسم في وسطها الصليب المقدَّس وعلى جانبيهِ طاووسان وفوق جناحي الصليب شكل وردة وقرٍ مستهلّ مع الحرفين

(١ اطلب مقالةَ الافرنسية المنونة Le pays des Nosiris, *Musée Belge*,IV, 291

اليونانيين Ω الدالَّين على « المسيح الاوَّل والاخر » كما ورد في سفر رؤيا يوحنَّا (١ : ٨ و ٢١ : ٩) . وهذه الصورة خشبية ليست بمحكمة . وانَّما وجد الكنت دي ڤوكويه صورة أُخرى اتقن وادقّ صنعاً على عتبة مدفن في دانا قرية من جبل ريحا تبعد نحو ٦٠ كيلومترًا بالتقريب من حماة شماليها . وفيها طواويس اربعة يواجه فيها الاثنان الاثنين الاخرين وبينهما اناء وفي الصورة عدَّة نقوش أُخرى كلّها رموز الى حياة السيد المسيح واقوالهِ بينها الكرمة واغصانها اشارةً الى قول الرب لتلاميذهِ (يوحنا ١٥) : « انا الكرمة وانتم الاغصان » والى قولهِ : « ان الغصن الآتي بالثمر يقيِّمهِ ابي ليأتي بثمر اكثر » . قال القديس كيرلُّس الاورشليميّ : ان كانت اغصان الكرمة وافنان الشجر بعد فصلها من ساقها وغرسها تنمو وتزدهر . أفيُحرم الانسان وحدهُ من القيامة ولاجلهِ خُلقت كلّ هذه الكائنات من المواليد الثلثة

وكان يمكننا ان نضيف الى الرموز السابقة رموزًا أخذها قدماء النصارى شرقًا وغربًا للدلالة على القيامة كدود القزّ الذي بعد ان يبقى هامدًا في فِلجتهِ ردحًا من الزمان يفتح باب حبسهِ ليطير منهُ في الجوّ . وكذلك حبَّة الحنطة التي قال عنها الربّ انَّها اذا لم تمت في الارض لا تأتي بثمر (يوحنَّا ١٢ : ٢٤) . ومثلها الحلزون الذي يمثل بيتهِ قبرًا

وفي الطوائف الشرقيَّة رمز قديم لا يزال مستعملًا حتى اليوم في عدَّة كنائس وهو البيضة . فيعلّقون بيضة نعام في حنايا الكنائس يريدون بها الدلالة على قيامة المسيح وعلى سهرهِ على كنيستهِ كما يسهر النعام على صغارهِ . ومن ذلك عادة البيض الفصحي في كلّ البلاد يتخيَّلون بها قبر المسيح الذي فتحهُ بقوَّة لاهوتهِ فظهر للعالم بحياة ممجَّدة بعد زوال حياتهِ الاولى الفانية . وربَّما صبغوا البيض بحمرة دلالة على دم الفادي المسفوك لخلاص البشر مدَّة آلامهِ . والكنيسة نفسها تُدعى في الشرق « بيعة » اي بيضة (من السريانية ܒܝܥܬܐ) ولعلَّ سبب هذه التسمية انهم كانوا يبنون سابقًا الكنائس على شكل البيضة يمثلون بها قبر المسيح

فمن هذه الرموز وغيرها ترى كيف النصارى الاقدمون كانوا يعتبرون سرّ قيامة السيِّد المسيح كاعظم معتقداتهم ويبنون عليهِ غاية آمالهم ويعتصمون بهِ كعروتهم الوثقى وإنَّ ذلك الَّا لكونهم يجدون في قيامة ربّهم من الموت عربون قيامتهم وقد

لقول الرسول (١ تس ٤ : ١٤) : فان كنّا نؤمن أنّ يسوع المسيح قد مات ثمّ قام فكذلك سيُحضر الله الراقدين بيسوع معهُ » . فبين القضيّتين رباط لا يُفصم كبين المقدّمة ونتيجتها فان نكر احد المقدّمة نكر ايضاً نتيجتها وان سلّمنا بالنتيجة وجب عليهِ قبول المقدّمة . كما اثبت ذلك رسول الامم في رسالتهِ الاولى الى اهل كورنتس (١٥ : ١٢) : « فان كان المسيح يُكرَز بهِ انهُ قام من بين الاموات فكيف يقول قوم بينكم بعدم قيامة الاموات » والسبب ان المسيح قد جُعل رأساً للكنيسة ونحن اعضاؤهُ . ومن « ثم اذا كُنّا قد غُرسنا معهُ على شبه موتهِ فنكون على شبه قيامتهِ ايضاً » (راجع مقالة الاب دي لابريار في هذا المعنى . المشرق ٨ : ٤١٣ — ٤٢٠)

فمن نظر الى كتابات المسيحيين على قبورهم منذ عهد المسيح شعر حقّاً بأنّهم لم يعودوا يحسبون الموت الّا كزقاد زمني او كمبر رقتي قبل ان يجتمعوا برأسهم الحيّ الذي سبقهم الى المجد وسوف يضمّهم يوماً الى جسدهِ الادبيّ بنشور اجسادهم . فشتّان بين هذه الرموز ورموز الوثنيين على مقابرهم وهم كانوا يعدّون القبر كمتحف افراحهم ومحبط آمالهم . وربّما ترى على صفائح قبورهم الفاظاً وشعائر يُستدلُّ منها انهم لا يأملون شيئاً ما وراء الحياة الزائلة أو لا يكترثون لذلك كما يُقرَأ على احد قبورهم : « اني لم أكن . ثمّ وُجدتُ . ثم لا اعود اكون . فيّان ذلك لديّ . فانّ هذه الحياة كلها »

οὐκ ἤμην. ἐγενόμην. οὐκ ἔσομαι. οὐ μέλει μοι. ὁ βίος ταῦτα.

فشكرًا كلّ الشكر لمن مات ثمّ انتصر من الموت وكسر مهمازهُ ونهج لنا بموتهِ سبيل الحياة الخالدة

آلام المسيح

بقلم الاديب محبوب الخوري الشرتوني محرر جريدة لبنان

أشهرتم معامعاً وحروبا فهبتم بالذّابلاتِ هُيوبا
فالى أين ترحفونَ سراعاً والى أين ترحفونَ وُثوبا